صدى التوراة ولإنجيل في شعر إلياس أبي شبكة

-دراسة في التداخل النصي -

أ. يوسف العايب
جامعة الوادي

الملخص:

القارئ لشعر أبي شبكة يشعر بوجود نصوص غائبة تتنوّع في طبيعتها ومصدرها، يمتصّها الشاعر فتنفتح نصوصه على إيحاءات دلالية متنوعة. والنص الديني متمثلا في الكتاب المقدس بعهديه القديم والحديث واحد

من تلك النصوص الغائبة التي نجد لها صدى قويّا في بعض آثار إلياس أبي شبكة الشعرية،وهو ما تهدف هذه الدّراسة إلى تجليته والكشف عنه، من خلال الاعتماد على تقنية التناص كمنهج مثلما يذهب إلى ذلك بعض الدارسين.

Abstract

The reader of Abi Shbka's poetry feels the presence of absent texts that varies in their nature and their source, the poet absorbs it then his texts are opened to various semantic suggestions . And the religious text represented in the Holy Book by both its old and new times single

From those absent texts that we find for them a strong effect in some of Elias Abi Shbka's poetic traces, and this is what this study aims to clarify it and disclose of it, through the reliance on the intertextuality technique as an approach as some of the learners follow that.

قامت ثقافة الشاعر إلياس أبي شبكة على روافد عدة لعلّ أبرزها الشعر العربي قديمه وحديثه ومطالعاته وقراءاته الواسعة لمختلف الثقافات والآداب الإنسانية ، كما كان لظهور المذاهب الأدبية الغربية أثر كبير في إثراء ثقافة الشاعر وفكره الرومانسي .

ولا ينبغي أن نفهم من هذه الأحكام أنّ شعر إلياس أبي شبكة قد تغذّى من تلك الرّوافد فحسب ، بل كان للكتاب المقدّس أثر كبير في تكوين شخصية الشاعر الفكرية والثقافية والأدبية .

ومثلما "كان الكتاب المقدس خلال قرون طويلة أهمّ مرجع لدى العرق الأبيض ، و حظي خلالها بدراسة عميقة لمعانيه اللاّهوتية والأخلاقية "1 ، فقد كان أيضا بمثابة المعين الذي لا ينضب بالنسبة لإلياس أبي شبكة يستمدّ منه المعاني والألفاظ والأفكار ويسجّل حضورا على أوسع نطاق في معظم نتاجه الشعري .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد أقبل الشاعر على محتويات الكتاب المقدس في عهديْهِ القديم والجديد منذ الصّغر بفعل المدارس التي تعلّم فيها ، ثم أدمن قراءاته تحت تأثير مطالعاته الكثيرة للأدب الرومانسي ، فانعكس أثر ذلك على رموزه وحكمه ونسقه التعبيريّ فاتّسمت بطابع توراتيّ إنجيليّ شديد الوضوح .2

ويؤكّد هذا الطّرح كثير من الكتّاب والباحثين الذين درسوا شعر إلياس أبي شبكة ومن بينهم (رزّوق فرج رزّوق) الذي يقول في معرض حديثه عن المنابع التي استقى منها الشاعر إلياس أبو شبكة ثقافته : " كان للتوراة بعد الثقافة المدرسية والثقافة الفرنسية اللتين تلقاهما أبو شبكة المنزلة الثالثة في تكوين ثقافته العامة والتأثير في أدبه وشعره خاصّة "3.

والدّارس لشعر إلياس أبي شبكة يقف عند هذه الحقيقة فكثيرا ما نراه يستشهد بآيات من سفر أيّوب وسفر التّكوين ويستعين بالرموز التوراتية خاصة في ديوانه (أفاعي الفردوس) في قصائد : شمشون ، دليلة ، سدوم ، حيّة عدن ... إلخ ، كما كتب غير بحث عن أثر الكتاب المقدس في

كتّاب الغرب والشرق وعلّق هوامش شتىّ على كتب طالعها مبيّنا أثر التوراة فيها 4 ، فنجده يكشف عن دراية وخبرة بعض ما أخذه بعض شعراء فرنسا وانجلترا الكبار من التوراة أو ما تأثروا به منها ، فيذكر لنا أن قصيدة لامارتين : (سقوط ملاك) تكاد تمتزج جميع فصولها بأسفار التوراة ، وملحمة ملتون الخالدة (الفردوس المفقود) مستلهمة من سفر التكوين .. وهكذا 5.

وقد تحدّث الكثير من الباحثين والكتّاب عن العناية الشديدة التي أولاها إلياس أبو شبكة للتوراة وعن وفرة ما حفظه منها ، فهذا سامي محجوب يقول :" ولعلّ أبا شبكة هو الأديب الوحيد ـ بين أدباء الشرق ـ الذّي خزّن في حافظته التوراة ، وما فيها من آيات ، وقد فاق من هذه الناحية الكثيرين من رجال الدين ، وإنّك تراه يردد آيات أرميا وحزقيال وأشعيا وابن سيراخ وطوبيا ... بالنصوص الكاملة وأرقام الفصول والآيات ، ولعلّه وجد في الكتب المقدسة خير مستوحى وأخصب مادّة للفكر البشريّ ، فغرف من ذلك الينبوع قدر ما وسعت الذاكرة ..."6.

لذلك فلا عجب بعد الذي أوردنا أن يكون للتوراة أثر واضح في شعر إلياس أبي شبكة ، ولا غرو ـ إذن ـ أن نعدّ الكتاب المقدس في عهده القديم قد شكّل إحدى المراحل الحاسمة في تأثرات أبي شبكة الأدبية .

غير أنّه يجدر بنا التّأكيد على حقيقة مفادها أنّه مثلما كان تأثّر إلياس أبي شبكة بالعهد القديم من الكتاب المقدس شديدا فإنّ تأثّره بالعهد الجديد منه أيضا لم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقل عن تأثره بالأوّل ، إذ يمكن للدّارس أن يلحظ كيف أورد الشاعر وبصورة عفويّة طائفة كبيرة من الرموز المسيحيّة من ذلك ذكره للجلجلة ، الدينونة ، العذراء ، الملائكة ، الصليب .. مسجّلة حضورا قويّا لها في شعر إلياس أبي شبكة .

وتشير معظم العناوين التي اختارها شاعرنا لبعض قصائده إلى ما كان للدّين من سلطان على شعره وشعوره .

كما أن المتأمّل في قاموس إلياس أبي شبكة الشّعري وخاصة في قصيدته غلواء يقف عند ذلك الكمّ الهائل من الألفاظ والتراكيب الدينية التي يكاد يصل مستوى انتشارها الكبير إلى مستوى انتشار الألفاظ الوجدانية فيها من ذلك : (تابوت ، هيكل الإله ، المعبد المهجور ، شمع المعبد ، الهيكل الأطهر ، العذارى ، دوحة الكنيسة ، رنّة الأجراس ، الغفران ، زواياالهيكل ، القربان ، صلوات الكاهن ، الأرواح ،يخور الأنفس ، المعتكف المقدس ، العهد الجديد ، مريم العذراء ...) ممّا يبرز بشكل أكثر وضوحا أثر الدّيانة المسيحيّة التي اعتنقها إلياس أبو شبكة في نتاجه الشعري ، ومدى تشبّع شاعرنا بتلك الروح المسيحية ووقوعه بشكل مباشر وتلقائيّ تحت تأثيراتها الكبيرة ، فإذا بنا نجده لا ينفكّ ينهل من هذا النبع التّعاليم والقيم الرّوحية والعقائدية

وقد انعكس ذلك على معظم شعره وبرز في معظم قصائده لا سيّما قصيدة غلواء التي استحالت بفعل ذلك إلى عالم يفيض بالرّوحانيات وعالم من التوبة والتّطهير والتّكفير ، عالم أراده إلياس أبو شبكة لتحقير الشّهوات والملذّات وإكثار الصّلوات وإسقاط الملذات وصيانة الحرمات .

وقد وعى الشاعر جيّدا كيف " بدت لنا المسيحية في نهاية ق 1 من تاريخها مشابهة لتلك الأسرار التّأليفية التي أخرج لنا العالم الشرقي ألوانا عديدة منها تتجاوب مع تطلّعه الصوفي الملحّ إلى الخلاص وحياة الخلود بديار السّعادة فيما وراء الحياة الدّنيا بآلامها وهمومها الحقيرة "7 ، فلطّخ جسد حبيبته غلواء بأصابع الخطيئة وجعل طريق خلاصها محفوفا بالآلام والأوجاع والدّموع ، وأنواع من العذاب والهموم ليحقّق لها التوبة متأثّرا في ذلك بما ورد في العهد الجديد من الكتاب المقدس من صور الخلاص ، فقد قدّم لنا القدّيس لوقا المسيح في إنجيله ذبيحة وضحيّة ، وأبرز أكثر من غيره من كتاب الأناجيل الثلاثة الآخرين صورة المسيح الفادي الذي جاء ليخلّص الخطاة فكان هو الذّبيحة 8.

وبالعودة إلى المتن الشعري لقصيدة غلواء ندرك جيّدا كيف أن محتوى هذه القصيدة التي قسّمها الشاعر إلى أربعة عهود متوافق بشكل عام وواضح مع محتوى الأناجيل الأربعة المشهورة " إنجيل متىّ ، إنجيل مرقس ، إنجيل لوقا ، إنجيل يوحنا "9 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالعهد الأول من غلواء ((المريضة)) يتوافق محتواه بحسب دراستنا له مع محتوى إنجيل (متى) الموسوم بإنجيل الانتظار " لأنّ يسوع من خلاله هو المسيح المنتظر "10 ، ووجه التداخل بين المحتويين هو أنّ كليهما يحمل بين طيّاته شكلا من أشكال المعاناة والألم ، فغلواء في عهد إلياس أبي شبكة الأوّل من قصيدته مريضة نفسيا ، ترى نفسها مذنبة ومخطئة ، فلم يترك لها الوهم سبيلا للخلاص من إثم لم ترتكبه في الحقيقة ، فيصوّرها الشاعر واقعة في الخطيئة التي سرى في اعتقادها وهم اقترافها ، ولأنّ المريض لا سبيل لشفائه وخلاصه من دائه سوى الدّواء ، يطلبه وينتظر البرء من مرضه، فإنّه أشبه إلى حدّ كبير بأولئك الذين كانوا ينتظرون المسيح عليه السلام:11

غلواء ؟ ما حلّ بها ... شقيّة أما تبقّى للرجا بقيّة ؟

... مسكينة ! "

- ويل أمّها صبيّة !

ثم يقول : 12

ذات شحوب راعب رهيب كأنّه لون من الذّنوب

أو نفس من صدرها المكروب

وكانت الظّلمة في أشجان والرّيح كالمبرد في الأبدان

واللّيل فيها كضمير الجاني

ولم يكد من حلمه يفيق حتى اعتراه خدر عميق

و جنّ في دماغه العروق

فأبصر المريضة مسدولة الذوائب المبعثرة

المحتضرة

جنيّة هائمة في مقبرة

ويبدو أنّ تعامل إلياس أبي شبكة مع الكتاب المقدّس في هذا العهد كان قصديّا حيث نجده يستدعي دلالات النّصّ السّابق متّكئا في ذلك على مخزونه الثّقافي والدّيني ليخدم دلالات نصه

الجديد فيرحل بنا في دراسة روحية باحثة عن القيم والمثل في ظلام ليل مريع تؤرّقه الشّرور والآثام ، يبكي ويتأوّه منتظرا فجر يوم جديد ليغسل آلامه وآثامه .

ويتداخل محتوى العهد الثاني من غلواء مع إنجيل (مرقس) ابن الإنسان ومخلص البشرية وهو يتوافق بدوره مع إنجيل لوقا الذي يرمز إلى خلاص البشر كما مرّ معنا .

وقد عنون الشاعر عهده الثاني من غلواء بـ " عذاب الضمير " ولأن عذاب الضمير سبيل يقود الإنسان للخلاص من عذابه ومعاناته على اعتبار أنّ محاسبة النفس ومراجعتها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تطهير لها من خطاياها وذنوبها وغسل لها من آثامها، فإنّ ذلك كان من أبرز المضامين التي اشتمل عليها هذا العهد ، فكما يخلّص عذاب الضّمير الإنسان من آثامه كذلك يخلّص (مرقس) البشريّة من آثامها بحسب المفهوم المسيحي وكذلك يفعل (لوقا) على اعتبار أنّه الأحقّ بهذه التسميّة .

والذي يقرأ قول إلياس أبي شبكة التالي يقف عند حجم العذاب النفسي الذي يكاد يفتك به والذي يغمره إحساس بالندم والتأسّف على الأيام الخوالي وهو يشكو آلامه لأمّه معترفا بأحزانه ، يشدّه حنين عميق لماضيه العذب وفي مقلتيه حلم للفجر الآتي : 13

وإن أصغيت تسمعه يقول لوالدة ألمّ بها النّحول
لأمّ فارقت زوجا حبيبا طواه الرّدى ليل ثقيل
((أحسّ لها اضطرابا في فؤادي ودمعا في حناياه يجول
وما أحسست أمس بمثل هذا فأمسي كان- لا أدري لماذا -
جميلا ، كلّ ما فيه جميل
أجل ، يا أمّ ، صرت فتى شقيّا يكاد اليأس يطفئ مقلتيّا
فأين مضت ليالي الخوالي وقلب كان في الماضي خليّا؟

ولا نبرح التّداخلات النصيّة لمحتويات عهود غلواء الأربعة مع الكتاب المقدس قبل أن نشير أيضا إلى توافق محتوى العهد الثالث منها (التجلّي) مع محتوى إنجيل (لوقا) لما فيه من بشارة بالمسيح مخلّص البشريّة والحامل لصورة الفادي الذي جاء ليخلّص الخطاة فكان هو الذبيحة ، ولما فيه من الفيض والتّجلي فتتراءى لشفيق جموع العذارى يعزفن له مزامير داود الذي عاش حياته مكفّرا عن خطيئته : 14

وتراءت ملائك لشفيق في ثنايا غمامة بيضاء
واكبتها من السّماء عذارى طاهرات كأدمع الشعراء

فيظل يشكو ويفصح عن معاناته وألمه وقد ذرف الدّموع الغزيرة سبيلا للخلاص : 15

وتراءت له جموع العذارى فوق تلك السّلالم العلويّة
عازفات له مزامير داو د بكنّارة الهوى القدسيّة
كلّ ليل،ياربّ،اغمر بالدّمـ ـمع سريري من أجل تلك الخطيّة
ويميع الفراش ماء عيوني !
كنّ يعزفن ، والصّدى في الرّقيع
كان يرقى إلى العلا بخشوع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثمّ يأتي صوت المسيح من السماء يبشّره بالمكانة التي حظي بها نتيجة لتوبته النصوح المكللة بالدموع والدّماء : 16

قدّست شعلة السّما فمك الإنـ ـسيّ فاحمد نار السّماء ومجّد
وهواك الشقيّ قدّسه الدّم ـ ـع فغمّسه بالدّماء وخلّد
فجّر الحب من فؤادك شعرا أيها البلبل الصّموت فأنشد

واستمرّ الشاعر يعزف ألحان التجلّي بآلام قدسية تحمل سكر الجنون وصور الحب العفيف الطاهر النبيل فكان الغفران وهو عهد يسوع المسيح الذي جاء ليخلّص الإنسانيّة جمعاء من خطاياها فغفر لغلواء ولشفيق وغمرهما إحساس عميق بالسعادة والرضا .

"ولأنّ التناص - دلالة - هو تشكيل نص جديد من نصوص سابقة أو معاصرة تشكيلا وظيفيّا "17- فلا غرو - بعد ذلك أن وجدنا الشاعر قد استطاع أن يجعل نصّه الجديد خلاصة

لعدد من النصوص المقدّسة التي ورد ذكرها في إنجيل لوقا واستطاع إلى حدّ كبير أن يمحو الحدود بينها ويعيد تشكيل نصه وصياغته تشكيلا جديدا بطريقة لا تبقي بينه وبين تلك النصوص القديمة سوى المادة وبعض التّقاطعات التيّ تومئ إلى النّصوص الغائبة بطريقة تظهر لنا من خلالها تناصات الشاعر مع فضاء الكتاب المقدس مساحة كبيرة تعمّق من دلالات القصيدة وتحيل بشكل واضح وجليّ إلى المعتقد الدّيني للشّاعر .

ولا عجب في ذلك فالشاعر مسيحي يؤمن بعقيدة المسيح ويدافع عنها ويمكّن لها ، وهو ما يجعلنا نطمئنّ إلى محاولتنا في إرجاع نصوصه إلى منابعها وأصولها ، وأنّ تأويلنا وقراءتنا لدلالات تلك النصوص لم يكن مجرّد افتراض لا مسوّغ له .

ويمكن أن نصف ما أوردناه بخصوص ذلك التداخل النصيّ بين محتوى عهود غلواء الأربعة ومحتوى العهد الجديد من الكتاب المقدس في رواياته الأربعة كما ورد على لسان متّى ومرقس ولوقا ويوحنّا بأنّه تداخل نصيّ أفقيّ سطحيّ يقف عند حدود المحتوى العام لكل من النص الحاضر والنص الغائب وما حدث من تداخل للأوّل في الثاني انطلاقا من "المفهوم الذي جعل النص ملكا مشاعا لكلّ الروافد الأدبية "18.

وسنحاول فيما يلي الولوج - ولو بعض الشيء - للبحث في عمق محتوى الكتاب المقدس في عهده الجديد عن بعض البذور أو اللّبنات التي تشكّل من خلالها النص الحاضر لإلياس أبي شبكة وكانت رافدا ، ومعينا في بلورة تجربة إلياس الشعرية وكاشفا مرّة أخرى ،ودليلا على معتقدات شاعرنا المسيحية وتأثراته الدينية بالكتاب المقدس .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأوّل ما يسترعي انتباه الدارس وهو يتصفّح المتن الشعري لقصيدة غلواء أنّ صاحبها إلياس أبا شبكة كان حريصا إلى أبعد الحدود في إيراد معاني التضحية والفداء التي اشتمل عليها العهد الجديد من الكتاب المقدس .

وقد كان حرصه منصبّا على الإفادة من تلك الرّموز المتعلقة بالتّضحية والفداء وكلّ ما كان يشكل جوهر عقيدة المسيح وما فيها من تحمّل لخطايا وآثام البشر ، وأبو شبكة حين يحاول الإفادة من تلك الرموز والمعاني نجده يسبغ عليها بعض تصوراته ورؤيته الحديثة التي تودّ أن تشير إلى " أنّ دلالات التاريخ الإنساني كانت وما زالت تحمّل البشر مسؤوليّة ما ينجم من خراب وصراع "19.

ويقف الدّارس أيضا عند حقيقة ثانية تتعلق بإفادة الشاعر من الكتاب المقدس (العهد الجديد) مؤدّاها أنّ إلياس أبا شبكة حين يستمدّ من الكتاب المقدس بعض الرموز المتعلقة بآلام السّيد المسيح ومعاناته فإنه بذلك يحاول أن يمتصّ تلك المعاني والدلالات ويجتهد ما استطاع أن يتمثّلها ويتّخذ منها في كثير من الأحيان معادلا موضوعيّا لذاته فتكون بالتالي أداة تعبيريّة فعّالة يفصح من خلالها الشاعر عن دلالات ذاتية خاصة ينقل إلينا عبرها بعض ما يعانيه من انكسارات نفسية وغربة روحية وإحساس بالألم والتمزّق والمصير المجهول الذي ينتظره وينتظر فتاته (غلواء).

وحسبنا فيما يلي أن نورد بعض المقاطع التي تخدم غرضنا من هذه الدراسة نسجّل فيها حضورا قويّا لمعاني الألم والتضحية والفداء التي حملها المتن الشعري لقصيدة غلواء ، وتؤكّد ما أوردناه بخصوص إفادة الشاعر من (العهد الجديد) للكتاب المقدس خاصة ما تعلّق بالسيد المسيح الذي قدّم نفسه ذبيحة لخلاص البشرية جمعاء .

وضمن هذا الإطار نجد إلياس أبا شبكة وهو يحاول إرضاء غلواء وتخليصها من آلامها وأوهامها مقتديا بالسيد المسيح ومستنصحا بعض ما أورده الكتاب المقدس من المعاني الخاصّة بمعاناة وآلام هذا الأخير فيقول : 20

فقال :" عفوا ، هذه أدمعي تشفع ،يا غلواء، بي فاشفعي
قطرتها من قلبي الموجع
أمام أوجاعي أمام الألم أمام هذا الضّعف هذا السّقم
وهذه العين التي لم
تنم
أطرح قلبي للهوى مجمرة "! فغمغمت غلواء :"ما أكفره
هذا الهوى! يمضي ويأتي الندم"

ثم يقول : 21

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قال لها :" قلبك ما أفجعه اللّه مـــا أقـــساه ، مـــا أوجعه

تكلّمي ، أودّ أن أسمعـــه

أودّ أن أحني له أضلعي قوسا من الحبّ فيبقى معي

ما بقي العمر ، وأبقى معـــه

أودّ أن أفرش عيـــني له هـــــذا دمـــــي أودّ أن يأكله

إنّ الهوى يهوّن الجلجلـــة

ليس الهوى ،يا أخت روحي سوى قربانة الأرواح ليس الهوى ..))

فغمغمت غلوا : ((سوى مهزلـــة))

لقد قدّم إلياس أبو شبكة من خلال تلك المقاطع أسمى صور التضحية والفداء لتخليص غلواء وعودتها إليه كسابق عهده بها ، فدموعه التي قطرها من قلبه الموجع وآلامه وضعفه وسقمه وأضلعه وعينه قدّمها الشاعر لتشفع له عند غلواء .

ويلاحظ الدّارس أنّ تعامل إلياس أبي شبكة مع الكتاب المقدس لم يكن بسيطا وساذجا إذ لم يقف عند حدود النّقل الحرفي بل تجاوز ذلك إلى امتصاص المعنى والإفادة من دلالاته في تشكيل تجربته الشعرية .

وإلياس أبو شبكة حين يقول : "هذا دمي أودّ أن يأكله " وحين يقول : 22

من لم يذق في الخبز طعم الألم ولم ينكر وجنتيه السّقم

وتسلخ الأوجاع منه حطـــم

من لم يغمس في هواه دمه من يمنع الأهوال أن تطعمه

ولا يرى في كلّ جرح حكـــم

لن يعرف العمر شعاع الإله ولن يرى آمالـه في رؤاه

بل عالما يخبط في مهزلـــة !))

فهو كذلك يستحضر لنا بعض الرموز الدّالة على تضحيات السّيّد المسيح من خلال استلهامه لما جاء في العهد الجديد من ذكر للعشاء المقدّس ، وهو عشاء الرّبّ حين اجتمع السّيّد المسيح بتلاميذه في عيد الفصح23 ،واشتهى أن يأكل معهم ، " وبينما هم يأكلون أخذ يسوع خبزا وبارك وكسّره وناول تلاميذه وقال :((خذوا كلوا هذا هو جسدي)) وأخذ كأسا وشكر وناولهم وقال : ((اشربوا منها كلكم هذا هو دمي ، دم العهد الذي يسفك من أجل أناس كثيرين لغفران الخطايا "24.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهذا النّمط من الاستحضار القائم على استلهام القصص الديني من الكتاب المقدس ما هو في الحقيقة سوى ضرب من التناص الإشاري عمد فيه الشاعر إلياس أبو شبكة إلى توجيه فكر القارئ ونظره إلى رافد من الروافد التي نهل منها ، وأصل خصب من أصوله الدينية القائمة على فكرة الفداء والتضحية .

والشاعرحين يستعين بقصة ((عشاء الرّبّ)) التي أوردنا فإنّ ذلك كان بهدف يسعى من خلاله الشاعر إلى سبغ التضحية على نفسه لأنّ تلك القصة تقوم على دلالة محوريّة مفادها أن موت السّيد المسيح تضحية من أجل مغفرة الخطايا والآثام ، فهو كذلك ، أو أنّه يودّ ذلك .

وهو حين يحاول ذلك ويسعى إلى التوحّد بالمسيح فإنّه يكسب عذابه النفسيّ غنى ومدلولا ويجعل وقع هذا العذاب والألم النفسي في متلقيه أكثر حياة وتدفقا ، يجسّد بشكل جليّ هذا الواقع المؤلم الذي يعيشه ، كما يصوّر حجم معاناته وتضحيته في سبيل تخليص غلوائه ، وأنّ هذه التضحية ليست عبثا ، وإنمّا فيها الحياة لطرف آخر .

ونمضي مع الشاعر في تناصاته مع الكتاب المقدس الإشارية والجزئية ، ونقف عند قوله : 25

قال بصوت خافت : ((أبانا

أنزل على شعوبك الغفرانا !))

فهو امتصاص دلاليّ وإشاريّ لما ورد في العهد الجديد حول الصلاة والصوم " أبانا الذي في السماوات ليتقدّس اسمك ... اغفر لنا ذنوبنا "26 .

كما أنّ إلياس أبا شبكة حين يقول في حوار أجراه بين شفيق و غلواء : 27

فقال : " وماذا يمثّل هذا الـ خيال ؟" فقالت :"غراما عثر"

فقال وقد جحظت مقلتاه "وهذا ؟" فقالت:"حبيبا غدر"

ـ وهذا الحبيب ؟

ـ غفرت له ويعفو إلهك عما بدر

فهو كذلك استحضار إشاريّ ودلاليّ أيضا لما ورد حول الصّلاة والصّوم في العهد الجديد "فإن كنتم تغفرون للنّاس زلاّتهم ، يغفر لكم أبوكم السماويّ زلاّتكم ، وإن كنتم لا تغفرون للنّاس زلاّتهم ، لا يغفر لكم أبوكم السماويّ زلاتكم " 28.

وهو حين يعمد إلى هذا الاستحضار الإشاري والدّلالي لبعض المعاني والدّلالات الواردة في الكتاب المقدّس ، أو حين يمتصّها فإن ذلك يتمّ مثلما نلاحظ بطريقة تجعل من النصوص السابقة (الغائبة) تلتحم في نسيج قصيدته مع باقي رموز التضحية والفداء في سبيل الخلاص ، بحيث يصبح النّسيج وحدة واحدة وصورة دلالية واحدة تعبّر بصدق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عن حرارة التّجربة من ناحية وعن الأمل في الخلاص من ناحية أخرى ، وهو أمل يعزّزه إيمان الشاعر وثقته في الله وفي عفوه بعدما فتك النّدم بقلبه ، واعتقاده بأنّ هذا النّدم الذّي ألمّ به ، وهذه الكآبة التي تعتري محيّاه كلاهما كفيل بتطهيره من خطاياه ، كما أنّ الدموع الغزيرة التي ذرفها كفيلة بالسّير به في سبل النجاة والخلاص من القذارة والوحل الذي سقط فيه .

غفرت غلواء - إذاً - لإلياس وصفحت عنه لا لأنّها ضعيفة أو مستسلمة ، ولكنّ ذلك يعدّ انعكاسا لتلك القيم الروحيّة والأخلاقية التي نهلت منها وتشبّعت بها ، فرغم الجفاء والظّلم الذي لاقته من حبيبها إلا أنّها في النّهاية غفرت له انصياعا لتعاليم دينها التيّ يحمل منها قلبها كلّ معاني الرحمة والعفو ، وكيف لا تعفو عنه وقد قاست بدورها آلام انتظار العفو والمغفرة ، وشعرت كذلك بآلام الخطيئة ؟ .

وقد جسّد هذا الموقف بين الحبيبين ثنائيّة الخير والشرّ في الحياة وأنّ النصر دائما للخير والغلبة

له ، كما أنّ ذلك يعدّ إرساء وتحقيقا لتلك المبادئ المسيحيّة التي آمنت بها غلواء وسعت إلى تحقيقها في نفسها البريئة الطّاهرة ، فبعدما أنزلها حبيبها إلى منزلته ولطّخها بآثام لم ترتكبها فتعذّبت معه وعانت ويلات الألم تجسّد معه "تجربة الإنسان السّاقط تحت لعنة الحواس والشهوات "29. ترحل به في النهاية إلى عالمها الطّاهر ، فتخلع عنه وعنها ثوب المكر والدنس وتُلبسه ثوب الطهر والتقى .

- وخلاصة ما تقدّم ، فقد كان الكتاب المقدس - بعهديه القديم والجديد - مصدرا خصبا من مصادر إلياس أبي شبكة الدينية ، حيث استلهم منه الشاعر صور الصّراع والمعاناة والعذاب وكذا معاني التّضحية والفداء ، وآلام السّيد المسيح ومعجزاته .

وقد اتّخذ الشّاعر من تلك الدّلالات المستحضرة صورة ذاتية ناطقة بما كان يعانيه من غربة روحيّة وانكسارات نفسية .

غير أنّ إلياس أبا شبكة لم يستطع أن يسبغ على تلك الدلالات رؤية موضوعية للعالم والتاريخ الإنساني رغم اعترافه الصّريح في مقدّمة قصيدته غلواء بأنّ بطلة قصّته غلواء ما هي سوى صورة لفتاة العصرالمخدوعة التي تلهث وراء زيف الحضارة وملذّات الحياة .

هوامش

1 - سهيل ديب (ترجمة وتعليق) ،التوراة تاريخها وغاياتها ، دار النفائس ، ط 6 ، 1992 ، ص 9 .

2 - جميل جبر ، إلياس أبو شبكة شاعر الحبّ، دار الجبل ،بيروت ،ط1، 1993 ، ص 150.

3 - رزوق فررج رزوق، إلياس أبو شبكة وشعره ، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، ط 2 ، 1970 ، ص 64

4- جميل جبر ، إلياس أبو شبكة شاعر الحبّ، ص 151

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

5 -رزوق فرج رزوق ، إلياس أبو شبكة وشعره ، ص 65 .
6- سامي محجوب ، العاصفة ، ع 100 ، نقلا عن المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
7- شارل جينيبير، المسيحية ، نشأتها وتطورها ، ترجمة عبد الحليم محمود ، دار المعارف ، ط 3 ، 1988 ، ص 253 .
8- الإنجيل للقديس لوقا ، دار المعارف ، القاهرة ، د ط ، د ت ، ص 5 .
9- الإنجيل (العهد الجديد) ، النشرة الرابعة ، 1992 ، جمعية الكتاب المقدس ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1995 ، ص 2 .
10 - المصدرنفسه ، الصفحة نفسها.
11 - إلياس أبو شبكة ، المجموعة الكاملة ،جمع وتقديم : نديم عبود ،مج1 ،دار رواد النهضة، لبنان،ط1985،1، ص352. 12- المصدر نفسه ، ص 351 ، 352.
13- المصدر نفسه ، ص 370 ، 371 .
14- المصدر نفسه ، ص 383 .
15 - المصدر نفسه ، ص 384 .
16 -المصدر نفسه ، ص 384 ، 385.
17- خليل موسى، التناص والأجناسية في النص الشعري، مجلة الموقف الأدب،ع 305، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، أيول1996 .
18-منير سلطان، التضمين والتناص ـ وصف رسالة الغفران للعالم الآخر (نموذجا) ـ منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د ط ،2004 ، ص 70 .
19-عبد الرضا علي ، الأسطورة في شعر السياب، دار الرائد العربي،بيروت ،لبنان ط2، 1984، ص 60 .
20-إلياس أبو شبكة ، المجموعة الكاملة ، ص 379 .
21 -المصدر نفسه ، ص 381 .
22 -المصدر نفسه ، ص 390 .
23 ينظر : الإنجيل (إنجيل متى)، ص 81 .
24 - المصدر نفسه ،الصفحة نفسها.
25-إلياس أبو شبكة ، المجموعة الكاملة ، ص 376 .
26 -الإنجيل (إنجيل متى) ، ص 13 ، 14 .
27 - إلياس أبو شبكة ، المجوعة الكاملة ، ص 334 .
28- الإنجيل (إنجيل متى) ، ص 14 .
29 - إيليا الحاوي،إلياس أبو شبكة شاعر الجحيم والنعيم ، ج 2 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط 2 ، 1980 ، ص

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com